

# قصر الحمراء مكان يتوقف فيه الزمن

هذا السور قصراً أو مركز حكومته، وسميت القلعة (القصبة الحمراء)، وصار قصر الحمراء جزءاً منها، وغدت معقل غرناطة الهام. واتخذ محمد بن الأحمر النصري مركزه في القصبة عام 635هـ/1238م وأنشأ داخل أسوارها قصره الحصين واتخذه قاعدة للملكة. وجلب إليه الماء من نهر حدره. وأنشأ حوله عدة أبراج منيعة منها:

- البرج الكبير (برج الحراسة). وبنى حوله سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة. وبنى مسكنه الخاص في جهة الجنوب الغربي من الحصن (في المكان نفسه الذي شُيد عليه قصر الإمبراطور شارلكان). وسميت القصبة الجديدة باسم (الحمراء) تخليداً لاسمها القديم من جديد.

وفي أواخر القرن السابع الهجري، أنشأ محمد بن محمد بن الأحمر الغالب بالله - ثاني سلاطين غرناطة - مباني الحصن الجديد والقصر الملكي.

ثم أنشأ ولده محمد في جوار القصر مسجداً قامت محله فيما بعد كنيسة سانتاماريا.

ثم جاء السلطان أبو الوليد إسماعيل فزاد في القصر واهتم بجماله. وتدين الحمراء بفخامتها وجمالها المعماري والفني إلى ولده السلطان يوسف أبي الحجاج الذي كان ملكاً شاعراً وفتاناً موهوباً. بنى معظم الأجنحة والأبهاء الملكية، وأغدق عليها من روائع الفن والزخارف، وبنى باب الشريعة المدخل الرئيسي حالياً للحمراء.

تقع مدينة (الحمراء) فوق هضبة مرتفعة يبلغ طولها بين 736م و740م وعرضها نحو 200م يحيط بها سور ضخّم بقيت منه أجزاء كبيرة، وللسور أبراج وأبواب عدة مازال معظمها حتى اليوم. ومن أهم الأبراج الباقية:

- برج قمارش Torre de Comares فوق قاعدة السفراء.

- برج المتزين Torre de Peinador.

- برج العقائل Torre de Las Damas.

- برج الأكام Torre de los Picos.

- برج الأسيرة Torre de La Cautiva.

- برج الأميرات Torre de Las Infantas.

والجدير بالذكر أن هذه الأبراج تقع في شمال

حينما يصل الزائر إلى الأثر التاريخي المعروف قصر الحمراء، يشعر وكأنه يدخل إلى عالم آخر، إلى مكان توقف فيه الزمن عند 500 سنة مضت. يقول أهل غرناطة، إن قصر الحمراء له سحر معين، وكان ساحرة قد ألقت عليه تعويذة تجعل السائح يعود إليه مرة ثانية وثالثة ورابعة. لقد راود هذا الإحساس 2.31 مليون شخص سنة 2011، وهو تحديداً عدد من زاروا ذلك الأثر الذي يعتبر أشهر أثر إسباني في العالم، وهذا الرقم يمثل زيادة قدرها 6.74 في المائة عن عدد السياح في العام السابق.

عن مجموعة أبنية محاطة بأسوار تقع على ربوة عالية تسمى السبيكة في الجانب الشمالي الشرقي من مدينة غرناطة. وهذه الأبنية على ثلاثة أقسام: القسم العسكري ويقع شمال شرقي القصر وهو عبارة عن قلعة تحرس الحمراء ولها برجان عظيمان، ثم القصر الملكي في الوسط ثم الحمراء العليا المخصصة للخدم.

يتحدث القصر عن مملكة غرناطة وملوكها وحضارتها وأثارها وجهادها دفاعاً عن استقلالها حينما غدت آخر معاقل العرب والمسلمين في شبه جزيرة إيبيرية. وبعد أن تالأت حضارتها نحو مئتي سنة، انطفأت مشاعلها وظهرت مبانيها دون حياة.

لم يكن قصر الحمراء سوى جزء من مدينة الحمراء أو (قصبة الحمراء) التي تشمل قصر الحاكم والقلعة التي تحميه. وكانت مباني دور الوزراء والحاشية تنمو مع الوقت حتى غدت قاعدة ملكية حصينة.

يرجع بناء الحمراء إلى القرن الرابع الهجري/

العاشر الميلادي. وكانت

هناك (قلعة الحمراء)

فوق الهضبة الواقعة على

ضفة نهر حدره اليسرى.

وعندما تولى زعيم البربر

باديس بن حبوس حكم

غرناطة، بعد ظهور دول

الطوائف في بداية القرن

الخامس الهجري، أنشأ

سوراً منيعاً حول الهضبة

التي قامت عليها (قلعة

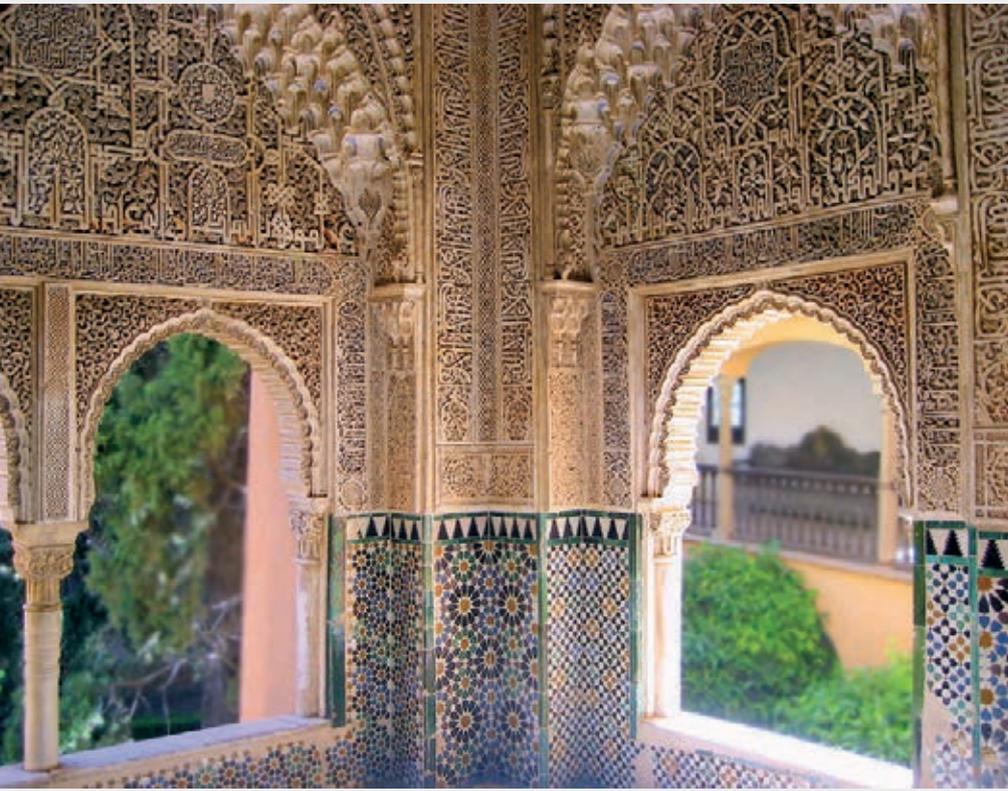
الحمراء)، وبنى داخل

قصر الحمراء جزء من معالم مدينة غرناطة الأثرية الواقعة على بعد 267 ميلاً جنوب مدينة مدريد، فبعد أن استوطن بنو الأحمر بغرناطة أخذوا يبحثون عن مكان مناسب يوفر لهم القوة والمنعة فاستقر بهم المطاف عند موقع الحمراء في الشمال الشرقي من غرناطة. وفي هذا المكان المرتفع وضع أساس حصنهم الجديد (قصبة الحمراء)، واتخذ بنو الأحمر من هذا القصر مركزاً للملكم، وأنشؤوا فيه عدداً من الأبراج المنيعة، وأقاموا سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة.

ويعد قصر الحمراء واحداً من أروع القصور في تاريخ العمارة الإسلامية، ومن أعظم الآثار الأندلسية الباقية حتى اليوم بما حواه من بدائع الصنع والفن، وقد زين صناع غرناطة المهرة القصر بأبدع نماذج لا تستطيع البشرية الإتيان بمثله.

ومن المرجح أن سبب تسمية الحمراء هو لون حجارتها الضارب للحمرة. والحمراء عبارة





الهضبة، وتطلّ على مدينة غرناطة الجميلة والمرج. وهناك برج الماء Torre del Agua في الطرف الشرقي من الهضبة، وبرج الرؤوس Torre de Las Cabezas في جنوب الهضبة.

وأهم الأبواب الباقية هي:

. باب الغدور Puerta de Las Pozas.

. باب الطّباق السبع Puerta de Siete Suelos وهناك برج بهذا الاسم. وقيل أن أبا عبد الله الصغير استقبل الأسبان يوم التسليم في هذا المكان. وهناك أيضاً:

. باب الشريعة المدخل الرئيسي حالياً للحمراء.  
. باب السّلاح Puerta de Las Armas في شمال القسبة قرب برج الحراسة.

. باب الشراب داخل الأسوار.

وفي الطرف الغربي من الهضبة تقع بعد القسبة قلعة قديمة اسمها حصن الأبراج الحمراء Castillo de Torres Bermejas.

يتميز موقع هضبة الحمراء بجمال الطبيعة. ويطلّ من جهة الشمال والغرب على مدينة غرناطة وبرجها البديع. كما يشرف من جهة الشرق والجنوب على أكّام (جبال سييرا نيفادا Sierra Nevada) المعروفة عند العرب باسم جبل شّيّر أو (جبل الثلج). وهي قريبة إلى أحياء المدينة في الجهة الشمالية الغربية. وتشرف على مجرى نهر حدّرة وعلى حي البيّازين (البأسين). يجتاز الزائر قصر الحمراء من مدخل يقع مقابل قصر الإمبراطور شارلكان. وتبدو على يمين ويسار هذا المدخل أبناء عدة عالية يشغلها (متحف الحمراء). وتقسّم مباني قصر الحمراء إلى جناحين كبيرين هما:

. جناح قمارش: يضم قاعة السفراء. وبرج قمارش الذي يعلوه.

. جناح الأسود: يتوسطه فناء الأسود.

فناء الريحان الكبير: تتقدمه ساحة البركة المستطيل الشكل، تتوسطه بركة المياه وتظلّها أشجار الريحان الجميلة.

ونقشت في زوايا فناء الريحان عبارة «النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين...» والآية الكريمة (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم).

وفي النهاية الجنوبية لهذا البهو باب عربي ضخم، هدمت المباني التي كانت وراءه، ولم يبق منها سوى أطلال. وتوجد في هذه الأطلال بعض النقوش مثل «لا غالب إلا الله» «عزّ لمولانا

بدأ السلطان أبو الوليد إسماعيل إنشاء قصر قمارش في بداية القرن الثامن الهجري. ثم أكمله من بعده ولده يوسف أبو الحجاج الذي أنشأ برج قمارش وبهوه. كما أنشأ جناح الحمامات السفلي القريب منه. ثم أنشأ ولده محمد الغني بالله بهو البركة. وأنشأ قصر السباع. وتعد زخارف قبته أجمل ما في بهو قمارش.

#### فناء السّرو

يؤدّي بهو البركة من جهة اليمين إلى باحة السرو. وإلى جانبها الحمامات الملكية، وأول ما يلتفت النظر غرفة فسيحة زخارفها متعددة الألوان مع بروز اللون الذهبي ثم الأزرق والأخضر

السلطان أبي عبد الله الغني بالله» وربما كانت هذه الأطلال بقية الجناح الخاص الذي هدمه شارلكان ليقوم مبنى قصره في جوار الحمراء. ويؤدّي باب فناء الريحان الشمالي إلى بهو صغير اسمه «بهو البركة».

بهو السفراء: يؤدّي البهو الذي يلي فناء الريحان من الجهة الشمالية إلى بهو السفراء أو بهو قمارش الذي يعد أضخم أبناء الحمراء سعةً، أضف إلى ذلك ارتفاع قبته 23م. ولهذا البهو شكل مستطيل أبعاده 18 × 11م. وفيه كان يعقد مجلس العرش. يعلو بهو السفراء برج قمارش المستطيل.





### قاعة الملوك (أو قاعة العدل)

في جهة شرق بهو الأسود مدخل قاعة الملوك Sala de Los Reyes. زين سقف الحنية الوسطى بصور عشرة من ملوك غرناطة تلوهم العمائم، تعبر ملامحهم عن الوقار والكبرياء. أولهم محمد الغني بالله. وآخرهم السلطان أبو الحسن والد أبي عبد الله. وهناك صور فرسان ومشاهد صيد.

### منظرة اللندراخا

في جهة شمال بهو الأسود وقاعة الأختين بهو منظرة اللندراخا Mirador de Lindarata. وذهب بعضهم في تفسير هذا اللفظ بأنه محرف لثلاث كلمات عربية (عين دار عائشة). والجدير بالذكر أن عائشة كانت إحدى ملكات غرناطة في القرن الرابع عشر الميلادي. وإن لفظ (عين) يفيد (نافذة). وتتألف هذه القاعة من بهو صغير مضلع.

متزين الملكة Peinador de La Reina جناح علوي صغير في نهاية الطرف الشمالي للحمراء. تحت (برج المتزين) Torre de Peinador الذي يعود إلى عهد السلطان يوسف أبي الحجاج. والجدير بالذكر أن الجناح المجاور لساحة الإمبراطور شارلكان من جهة الجنوب يحمل

المياه في هذه البركة حيث حاول الفرنجة التعرف على سر انتظام تدفق المياه بالشكل الزمني الذي كانت عليه. ومن الجدير بالذكر أن الحضارة الإسلامية استخدمت الفوارات في زخرفة الحدائق العامة والخاصة، وقد وصلت براعة المهندسين المسلمين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حدًا كبيراً في صنع أشكال مختلفة من الفوارات يضر منها الماء كهيئة السوسنة، ويتم تغييرها حسب الحاجة ليفور الماء كهيئة الترس وفي أوقات زمنية محددة، ولقد وصلت تقنية الفوارات قمتها في الأندلس حيث تنافس المهندسون الأندلسيون في تزيين حدائق وقصور الخلفاء والأمراء، وتمثل فوارات قصر الحمراء وجنة العريف نموذجاً متطوراً لما وصلت إليه إبداعات المسلمين في ذلك الوقت.

### قاعة بني سراج

في منتصف الناحية الجنوبية من بهو الأسود مدخل قاعة بني سراج Sala de Los Abencerrajes الغرناطيين الذين كان لهم دور كبير في الأحداث الأخيرة. ولهذه القاعة شكل مستطيل أبعاده (12م × 8م). فرشت أرضها بالرخام. وتلوها قبة عالية في جوانبها نوافذ يتسرب منها النور. وفي وسط القاعة حوض نافورة مستديرة من الرخام.

والأحمر وفي وسطها نافورة ماء صغيرة، وتعرف باسم غرفة الانتظار. أما الحمامات فتعمرها الأنوار الداخلة عبر كوات بشكل ثريات وأرضها مرصوفة بالرخام الأبيض، ومن الحمام يتم الدخول إلى غرفة الامتشاط والاستراحة التي تكثر فيها الرسوم الغربية عن الفن الإسلامي، ويتخلل الحمامات أبهاء صغيرة.

### قاعة الأختين

تقع في شرق بهو البركة. عُرفت هذه القاعة بهذا الاسم لأن أرضها تحتوي على قطعتين من الرخام متساويتين وضخمتين.

### بهو الأسود

تؤدي قاعة الأختين من بابها الجنوبي إلى بهو الأسود أشهر أجنحة قصر الحمراء. قام بإنشاء هذا الجناح السلطان محمد الغني بالله (755هـ/1354-793هـ/1391م). إنه بهو مستطيل الشكل أبعاده 35م × 2م تحيط به من الجهات الأربع أروقة ذات عقود يحملها /124/ عموداً من الرخام الأبيض صغيرة الحجم ولكنها كثيرة الجمال والرشاقة وعليها أربع قباب مضلعة. في وسط البهو نافورة الأسود الجميلة، على حوضها المرمري المستدير إثنا عشر أسداً من الرخام الجميل، تخرج المياه من أفواهها بحسب ساعات النهار والليل. وقد تعطلت مخارج



لوحة رخامية تذكارية تذكر أنه كان مقاماً للكاتب الأمريكي (واشنطن إيرفينج) عام 1829 الذي اشتهر بكتابه (فتح غرناطة) و(قصر الحمراء).

#### الزاوية والروضة

وهناك منطقة مهجورة من القصر في جهة الغرب كانت زاوية أو مصلى فيها ميضأة وقاعدة مأذنة وكانت خرائب الروضة مدفناً للملك بني نصر ملوك غرناطة في جهة جنوب باحة السباع. وعثر في الروضة على شواهد عدة لقبور تعود لملوك غرناطة.

#### المسجد والكنيسة

وحل محل مسجد الحمراء في وسط الهضبة في جنوب الروضة مبنى كنيسة سانتاماريا. وقد أمر السلطان محمد الثالث 1302-1309 ببنائه وجعله أفخم مساجد غرناطة.

#### نقوش الأبراج

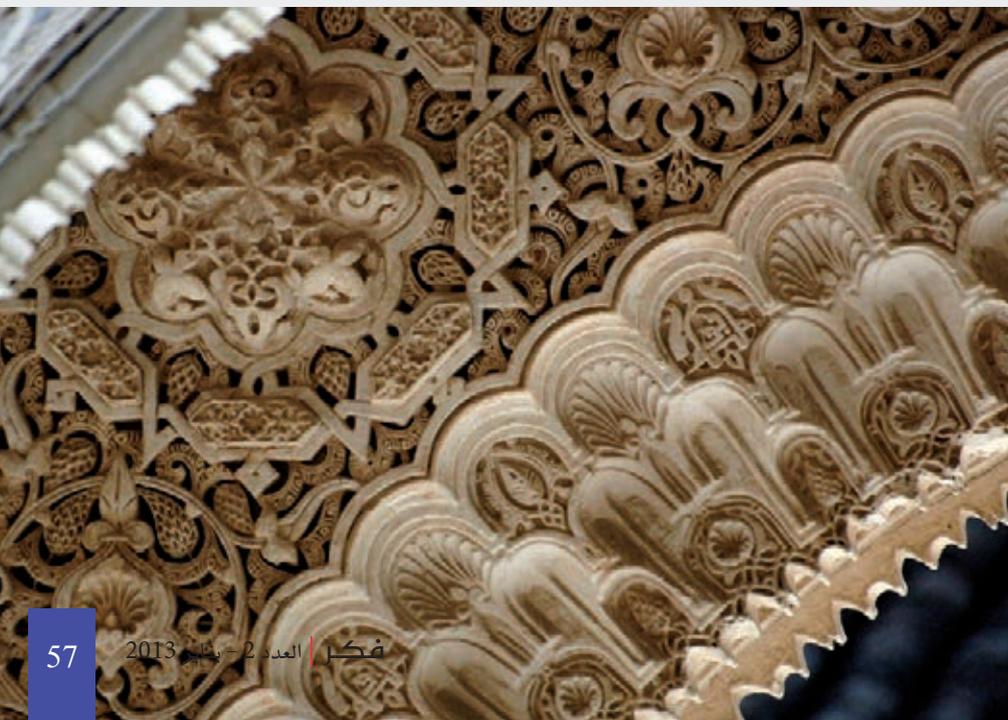
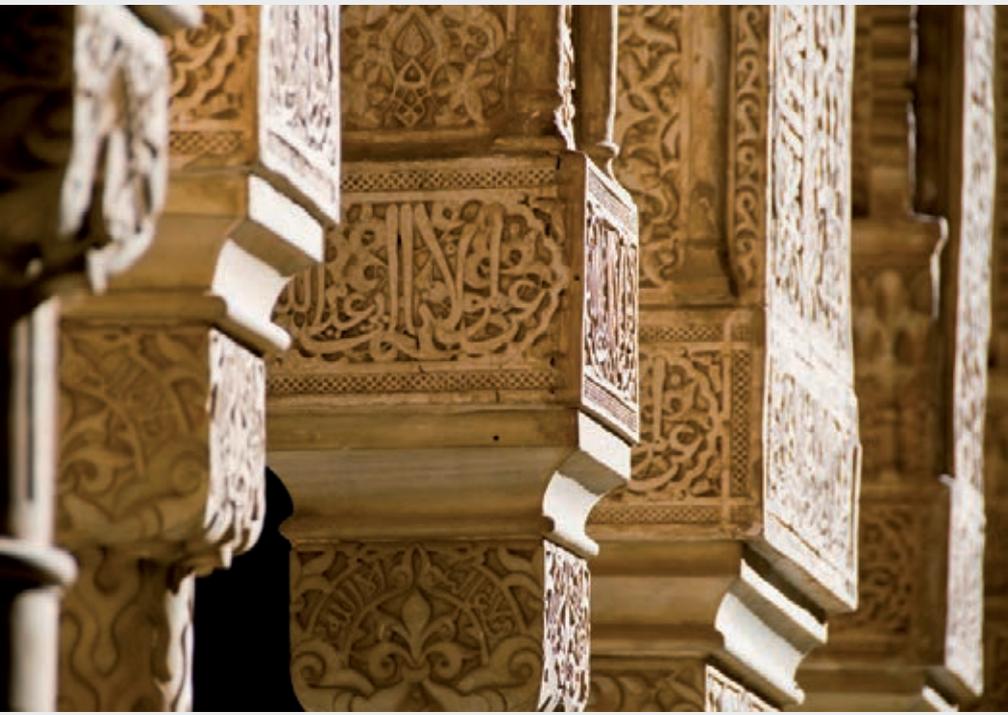
زينت الأبراج بنقوش جميلة مثل برج الأسيرة Torre De La Cautiva الذي بناه السلطان يوسف أبو الحجاج.

#### جنة العريف

بالقرب من قصر الحمراء وعلى بعد 1000م منه يوجد قصر جنة العريف الذي شيد في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ويقع شمال شرقي قصر الحمراء فوق ربوة مستقلة ومن ورائه جبال الثلج. وقد غرست في ساحات القصر وأفنيته الرياحين والزهور الفاتحة الجمال حتى أصبح هذا القصر المثل المضروب في الظل الممدود والماء المسكوب والنسيم العليل وقد اتخذه ملوك غرناطة منتزهاً للراحة والاستجمام.

#### قصر الإمبراطور شارلكان

قضى شارلكان على تراث الأندلس وأثارها. وهدم قسماً كبيراً من قصر الحمراء ليبنى قصره عام 1527م، وتابع ولده فيليب الثاني (1556-1598) تخريب قصر الحمراء وتشويهه. وأدى الإهمال إلى الخراب. وفي عام 1590 حدث حريق ألحق الضرر بهذا القصر الأثري. وفي فترة الغزو الفرنسي نسف الفرنسيون بعض أبراج قصر الحمراء. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر أدركت إسبانيا في عهد شارل الخامس إلى المعماريين Pedro Luis de Mechuea بترميم القصر واعتباره



أثراً للنهضة الإسبانية، وفائدة المحافظة عليه للسياحة. وبعد ذلك مرت فترة طويلة من الإهمال الشامل حتى عام 1828 حيث عهدت الأعمال الضخمة لإعادة القصر وترميمه وتأهيله إلى المهندس المعماري Jose Contreras ومن ثم تابع العمل ابنه Rafael ثم حفيده Mariano الذين قادوا العمل وأوصلوا القصر إلى الحالة الراهنة. ويعتبر قصر الحمراء إلى جانب جباهته

الحضارية الإسلامية أيضاً متحفاً غنياً يحتوي على مجموعة كبيرة من الأثاث الإسلامي والرخام والأواني الخزفية المسماة بالحمراء وهي نماذج نادرة من الفن الإسلامي الأندلسي، واليوم تسعى إسبانيا للحفاظ على هذا الأثر الحضاري والإسلامي الراهن لما تجنيه من فوائد إعلامية حضارية وثقافية وسياحية وكذلك مادية كبيرة جداً من خلال ملايين السائحين الذين يزورونه سنوياً.

ويبقى قصر الحمراء درة الحضارة الإسلامية ترمز إلى التقدم في فن العمارة والزخرفة الإسلامية أينما وجدت. لقد قضى الإسبانيون على دولة غرناطة ولكن آثار العرب والمسلمين فيها مازالت خالدة تبهج الأبصار وتملأ النفوس بمشاعر الحزن. رابط لفيلم وثائقي لقصر الحمراء: <http://www.youtube.com/watch?v=6J2LB8v435I>



نزار قباني

## غرناطة

في وجهك العربي، في الثغر الذي  
ما زال مختزناً شمساً بلادي

في طيب جنات (العريف) ومائها  
في الفل، في الريحان، في الكباد

سارت معي .. والشعرُ يلهث خلفها  
كسنابلٍ تركت بغير حصاد ..

يتألق القُرطُ الطويلُ بجيدها  
مثل الشموع بليلة الميلاد ..

ومشيت مثل الطفل خلف دليلتي  
وورائي التاريخ .. كوم رماد ..

الزخرفات أكاد أسمع نبضها  
والزركشات على السقوف تنادي

قالت: هنا الحمراء .. زهو جدودنا  
فاقرأ على جدرانها أمجادي

أمجادها!! ومسحت جرحاً نازفاً  
ومسحت جرحاً ثانياً بفؤادي

يا ليت وارثي الجميلة أدركت  
أن الذين عندهم أجدادي...

عانتُ فيها عندما ودعتها  
رجلاً يسمي (طارق بن زياد) ..

في مدخل (الحمراء) كان لقاءنا  
ما أطيب اللقيا بلا ميعاد

عينان سوداوان .. في حجريهما  
تتولد الأبعاد من أبعاد

هل أنت إسبانية .. ساءلتها  
قالت: وفي غرناطة ميلادي .

غرناطة ! صحت قرون سبعة  
في تينك العينين .. بعد رقاد

وأمية .. راياتها مرفوعة  
وجيادها موصولة بجياد ..

ما أغرب التاريخ .. كيف أعادني  
لحفيدة سمراء .. من أحفادي

وجه دمشق .. رأيت خلاله  
أجفان بلقيس .. وجيد سعاد

ورأيت منزلنا القديم و حجره  
كانت بها أمي تمد وسادي

والياسمينية، رُصعت بنجومها  
والبركة الذهبية الإنشاد ..

دمشق .. أين تكون؟ قلت: تربتها  
في شعرك المنساب نهر سواد